بلوغ مغرب الشمس ومطلعها في آن واحد

د. رابح جابة[1]

القسم الثاني والأخير

قال الله جل جلاله في الكتاب المكنون :

﴿ويسألونك عن ذي القرنين، قل سأتلو عليكم منه ذكرا. إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا. **فاتبع سببا. حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما**، قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا. قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا. وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسرا. **ثم اتبع سببا. حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا.** كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا﴾[2].

﴿**حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما...**﴾[3].

جاء في تفسير هذه الآية الكريمة[4] أن الشمس تغرب في عين حمئة أي في طين أسود لشدة ملامسته الماء، (في الحمأة أي "الحما" في لغتنا الدارجة)

---

1. دكتور في علم الجيولوجيا.
2. سورة الكهف 82-88.
3. سورة الكهف 84.
4. – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : "تفسير التحرير والتنوير"، الجزء 16، ص 25 26، – ابن كثير، - المصحف المفسر، – صفوة التفاسير، – انظر التفاسير بالكامل في آخر المقال.

أو هي تغرب في عين حامية كما قرأها البعض. وهذا في نظري بعيد كل البعد عن الصواب. ونحن كما تقدم نراها تختفي وراء قوس صغير من تربة الأفق في شكل عدسة محدبة لتظهر من جديد بالقرب من مغربها أو بالقرب من المكان الذي غربت فيه، أي في المنطقة القطبية. يظهر من هذا أن ذا القرنين لم يبلغ المنطقة المتجمدة القطبية وهو يتابع غروب الشمس، وذلك لانعدام الحياة هناك من شدة البرودة ولكنه اقترب منها فقط، حيث وجد هناك قوما لا يكادون يفقهون قولا، وعلى درجة بالغة من الجهل وقلة المعرفة. وأظن أن هؤلاء القوم هم الذين يسمون الآن بـ : (الإسْكِيمُو) وهم الذين يعيشون في مناطق يكسوها الثلج أغلب أيام السنة.

﴿ ثم اتبع سببا. حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا﴾[1].

يقول المفسرون لهذه لآية الكريمة[2] : أن ذا القرنين اتجه نحو الشرق فوجد الشمس تشرق على قوم لا يستر أجسادهم من وهجها وشدة حرارتها شيء، أي ليس هناك جبال أو بنيان أو أشجار تظلهم من لفحها وشدة حرها.

---

1. سورة الكهف 87.

2. – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : "تفسير التحرير والتنوير"، الجزء 16، ص 28-29.
– "تفسير ابن كثير"، الجزء 4، ص 170.
– محمد فريد وجدي : "المصحف المفسر"، الجزء الثاني، ص 393.
– محمد علي الصابوني : "صفوة التفاسير"، المجلد الثاني، ص 205.

نلاحظ هنا أن الله تعالى قال قبل هذه الآية الأخيرة : "ثم اتبع سببا" يظهر من هذا التعبير أن ذا القرنين لم يرجع إلى الوراء ليسير نحو الشرق، ولكنه تابع مسيرته في نفس الاتجاه حتى بلغ الدائرة القطبية أين تكون الشمس مشرقة ولا تغرب لمدة طويلة، ولذلك قال : "وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا" ولم يقل وجدها تشرق على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كما جاء في بعض التفاسير، معنى ذلك أن الشمس مشرقة باستمرار، وهي فقط تطلع ولو بلغ ذو القرنين النقطة القطبية لرآها مشرقة وهي تدور حوله طالعة لمدة ثلاثة أشهر. ثم تدور نازلة لمدة ثلاثة أشهر أخرى، أي أن الله جل جلاله لم يجعل لهم من دونها سترا أي أنها لم تغرب عنهم طول المدة التي كان يلاحظها فيها ذو القرنين، ولا يقصد القرآن انعدام الجبال والبنيان والأشجار، وذلك لأن الشمس فوقهم باستمرار ولا تغرب عنهم لمدة ستة أشهر، أو بالأحرى، لم تغرب عنهم كل المدة التي كان فيها ذو القرنين معهم والشمس تقابلهم.

هكذا أَعْتَقِد أن ذا القرنين لم يتنقل نحو الغرب ليجد الشمس تغرب في عين حَمِئَة، ولم يتنقل بعد ذلك نحو الشرق ليجد الشمس تطلع على قوم لا جبال ببلادهم تظلهم من وهج الشمس، وليس لهم بناء تظلهم جدرانه، كما جاء في التفاسير، ولكنه تنقل نحو الشمال، (إن كان هذا صيفنا) أو نحو الجنوب (إن كان ذلك شتاؤنا) وقد يكون انتقل إلى شمال سيبيريا حتى لا أخالف فقط، أفكار المفسرين الذين يتحدثون عن أن ذا القرنين كان موجودا بمنطقة الصين، رغم عدم وجود ما يدل على هذا يقينا.

وبكلمة أخرى، فإن الإنسان إذا انتقل صيفا نحو الشمال أو شتاء نحو الجنوب فإنه يرى الشمس تغرب وراء جزء بسيط من تربة الأفق، لتظهر من جديد، وهناك يجد قوما بَدْوًا لا يعرفون الحضارة والتقدم، فإذا واصل مسيرته نحو القطب حتى بلوغ الدائرة القطبية فإنه يرى الشمس تطلع ولا تغرب لعدة أيام أو شهور، بحسب اقترابه من النقطة القطبية، وبهذا يكون ذو القرنين قد وصل مغرب الشمس ومشرقها وهو على ما أظن يسير في اتجاه واحد، والقرآن يقول : ثم اتبع سببا، وقد يكون هذا بمعنى تابع طريقه و لم يغير اتجاهه، والعلم لله.

ومن ناحية أخرى فإن ذا القرنين لم يبلغ نقطة القطب وذلك لأنه لا وجود هناك لسكان في النقطتين القطبيتين لشدة برودتهما، وفي الآية "وجدها تطلع على قوم" أي على أناس قاطنين هناك.

وإذا كانت الشمس مشرقة على النقطتين القطبيتين لمدة ستة أشهر بالتناوب أو لمدة طويلة بالمناطق القريبة منهما حيث يوجد هناك سكان، فإن معنى "لم نجعل لهم من دونها سترا"، لا تعني سترا من لفح الشمس أو من شدة حرارتها كما جاء في التفاسير، لأن الشمس هناك تكون باردة بسبب ميلان أشعة الشمس عن مستوى سطح الأرض، وذلك لأن عدد الفوطونات التي تنزل على سطح الأرض في مساحة معينة يكون أقل بكثير من عددها على نفس المساحة عندما تكون أشعة الشمس عمودية على سطح الأرض، ولكنها تعني أنها تقابلهم باستمرار ودون غروب، برودة الشمس في هاتين المنطقتين جعلتهما متجمدتين باستمرار، ولو كانت أشعة الشمس تلفح الأجساد لتمكنت من إذابة ثلوج المنطقتين القطبيتين.

وهناك عوامل أخرى تساعد على التجمد الأبدي للمنطقتين القطبيتين منها انخفاض سمك الغلاف الجوي، الذي يمثل الاحتباس الحراري[1] وغيره من الأسباب المذكورة في التعليق أسفله والتي جعلت المنطقتين القطبيتين متجمدتين على مر الأزمنة والعصور رغم طلوع الشمس عليهما ولمدة ستة أشهر في السنة بدون انقطاع، ولو كانت الشمس هناك حارة تلفح الناس لذابت من حرارتها ثلوج القطبين.

والله أعلم

---

1 . الغلاف الجوي يتكون من عدة طبقات : من أهمها بالنسبة للاحتباس الحراري الطبقة التي تدعى : اتروبوسفيرا هذه الطبقة هي الطبقة الجوية السفلى، سمكها في المنطقة الاستوائية يقدر بـــ 18 كم، فيكون سمك الغلاف هذا كافيا لمنع الحرارة التي تعكسها الأرض من النفاد إلى الأجواء الخارجية، ويحبسها محتفظا بها لوقت الحاجة أما في المنطقتين القطبيتين، فسمك الغلاف الجوي هذا يقدر بـــ 10 كم فقط، هذا السمك لقلة غلظه لا يمكنه أن يحبس كل ما تعكس الأرض من الحرارة، ويترك جزء منها يخترقه ويصعد في الأجواء الخارجية.

هذه الطبقة "اتروبوسفيرا" تمثل 79 في المائة من كتلة كل هواء الغلاف الجوي.

ثم أن الثلج أبيض اللون يعكس أغلب الأشعة في الجو، هذا الجو الذي لا يحبس منها إلا قليلا لقلة سمكه كما رأينا، ثم عدم دوران الأرض هناك أو دورانها ببطء ...

كل هذه العوامل وغيرها تجعل المنطقتين القطبيتين متجمدتين على مر الأزمنة والعصور.

* ا. والمراد بـ (مغرب الشمس) مكان مغرب الشمس من حيث يلوح الغروب من جهات المعمورة من طريق غزوته أو مملكته . وذلك حيث يلوح أنه لا أرض وراءه بحيث يبدو الأفق من جهة مستبحرة. إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح. للتخيل ولأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزر وهو بحيرة قزوين فإنها غروب بلاد الصين.

والقول في تركيب (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) كالقول في قوله (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها).

والعين : منبع الماء.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص (في عين حمئة) مهموزا مشتقا من الحمأة. وهو الطين الأسود. والمعنى : عين مختلط ماؤها بالحمأة فهو غير صاف.

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وخلف (في عين حامية) بألف بعد الحاء وياء بعد الميم، أي حارة من الحمو وهو الحرارة، أي أن ماءها سخن.

ويظهر أن هذه العين من عيون النفط الواقعة على ساحل بحر الخزر حيث مدينة (باكو)، وفيها منابع النفط الآن و لم يكن معروفا يومئذ. والمؤرخون المسلمون يسمونها بلاد المنتنة.

ب. تفسير ابن كثير، الجزء الرابع، صفحتا 168 -169 : "حتى إذا بلغ مغرب الشمس" أي فسلك طريقا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة، والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل

الكتاب واختلاف زنادقتهم وكذبهم، وقوله (وجدها تغرب في عين حمئة) أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى : (إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون) أي طين أملس وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير حدثني يونس... كان ابن عباس يقول في عين حمئة ثم فسرها ذات حمئة، وقال نافع وسأل عنها كعب الأحبار فقال : أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب تغرب في طينة سوداء؛ وكذا روى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد. وقال أبو داود الطيالسي حدثنا محمد بن دينار عن... عن... أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ حمئة، وعن ابن عباس وجدها تغرب في عين حامية، يعني حارة وكذا قال الحسن البصري وابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب، قلت : ولا منافاة بين معنييهما إذ تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود؛ كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى عن... عن عبد الله نظر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الشمس حين غابت فقال (في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض).

(يلاحظ المؤلف أن ما جاء في هذا الحديث، بقطع النظر عن كون الحديث صحيح أو مكذوب، فإنه كلام علمي لا مجال للشك فيه، أي أن حرارة الشمس عظيمة جدا مثلها كمثل التفاعلات الحرارية التي تكون عليها حرارة نهاية الدورة الزمنية أو بدايتها أو ما هو باق من حرارة هذه الدورات في مراكز

المجرات وفي الكوازرات وغيرها من مراكز الطاقة الكونية، وأعتقد أنها التفاعلات الجهنمية (كما جاء في موضعي السقف الحافظ المحفوظ، والعلم ويوم القيامة، الجزء الثاني).

إنّ معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية (تغرب في عين حامية) . . .الخ.

ج. المصحف المفسر، محمد فريد وجدي، الجزء الثاني، الصفحة 392.

(حمئة أي عين ذات حمأة) حتى إذا وصل إلى مغرب الشمس وجدها تغرب في عين ذات طين مبلول أسود.

د. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المجلد الثاني، ص 204 – 205 :

(حتى إذا بلغ مغرب الشمس) أي وصل المغرب (وجدها تغرب في عين حمئة) أي وجد الشمس تغرب في ماء وطين –حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة– فلأن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال الرازي : إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب و لم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر.

*ا. الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، "تفسير التحرير والتنوير"، الجزء السادس عشر، ص 28-29 :

ومطلع الشمس : جهة المشرق من سلطانه ومملكته، بلغ جهة قاصية من الشرق حتى يخال أن لا عمران وراءها، فالمطلع مكان الطلوع.

والظاهر أنه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو كوريا شرقا، فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم شيء من حرها، أي لا جبل فيها يستظلون بظله ولا شجر فيها، فهي أرض مكشوفة للشمس. ويجوز أن يكون

المعنى أنهم كانوا قوما عراة فكانوا يتقون شعاع الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب. فالمراد بالستر ما يستر الجسد.

وكانوا قد تعودوا ملاقاة حر الشمس، ولعلهم كانوا يتعرضون للشمس ليدفعوا عن أنفسهم ما يلاقونه من القُر ليلا.

وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع والعوائد وسيرهم على نحو مناخهم.

ب. تفسير ابن كثير، الجزء الرابع، ص 170 :

ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى "وجدها تطلع على قوم" أي أمة "لم نجعل لهم من دونها سترا" أي ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس، قال سعيد بن جبير كانوا حمرا قصارا مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك.

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا سهل بن أبي الصلت سمعت الحسن وسأل عن قول الله تعالى "لم نجعل لهم من دونها سترا" فقال أن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم قال الحسن هذا حديث سمرة، وقال قتادة ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئا فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروفهم ومعايشهم وعن سلمة بن كهيل أنه قال : ليست لهم أكنان إذا طلعت الشمس طلعت عليهم فلأحدهم أذنان يفرش إحداهما ويلبس الأخرى ، قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله : "وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا" قال هم الزنج، وقال ابن جرير في قوله "وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا" قال لم يبنوا فيها بناء قط ولم يبن عليهم بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى تزول الشمس أو دخلوا البحر وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل . جاءهم جيش مرة

فقال لهم أهلها : لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها، قالوا لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام؟ قالوا هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس هاهنا فماتوا، قال فذهبوا هاربين في الأرض.

ج. محمد فريد وجدي : "المصحف المفسر"، محمد فريد وجدي، الجزء الثاني، ص 393 :

حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تشرق على قوم عرايا ولا يعرفون الأبنية، لم نجعل لهم من دونها سترا.

د. صفوة التفاسير : "محمد علي الصابوني"، المجلد الثاني، ص 205 :

"حتى إذا بلغ مطلع الشمس" أي حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي "وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا" أي وجد الشمس تشرق على قوم ليس لهم من البناء واللباس ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض، وإذا غربت خرجوا لمكاسبهم قال قتادة : مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلا من آمن حتى أتى مطالع الشمس فأصاب قوما في أسراب عراة ، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت، حتى إذ زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم ، وذكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال أنهم الزنج.